الحرب الوطنية العظمى: الذكرى الثّمانون لانتصار الشعب السوفييتي على النازية (3-4)

د. زياد منصور

باحث في الشأن الروسي

 المحطة الرئيسية في مسار الحرب

لعلَّ الزحف نحو برلين، كان بمثابة المرحلة الختامية الحاسمة في مسار الحرب الوطنية العظمى، وجاء ذلك بعد سلسلة من الانتصارات السوفييتية الكبرى منذ معركة ستالينغراد، ومعركة كورسك. ابتدأ هذا الزحف فعليًا منذ تحرير الأراضي السوفييتية في عام 1944، ثم عبور الجيش الأحمر لحدود بولندا، وشنّ هجوم شامل على ألمانيا النازية في ربيع عام 1945.

أما أهم سمات هذا الزحف، فهي المحطات التالية:

 عملية فيستولا–أودر (كانون الثاني1945): أتاحت للقوات السوفييتية التقدُّم السريع نحو قلب ألمانيا، مخترقة أكثر من 500 كيلومتر في أسابيع.

 معركة برلين (نيسان-أيار1945): كانت آخر وأعنف معارك الحرب في أوروبا. شارك فيها أكثر من 2,5 مليون جندي سوفييتي. سقطت برلين في الثاني من أيَّار، وانتحر هتلر في الثلاثين من نيسان، أو تمَّ تسميمه. ففي أحدث معلومات عن اللحظات الأخيرة لنهاية ادولف هتلر ، وبمناسبة الذكرى الثمانين لنهاية الحرب الوطنية العظمى، كشف جهاز الأمن الروسي اليوم أن "لينج" ، وهو رئيس جهاز حرس هتلر، هو من أطلق النار على رأس هيتلر لجعل موته بطوليا"، وأن لينج ظل طوال التحقيق معه حريصا على تقديم سيده السابق على هذا الأساس، ولكن لجنة خاصة من أفضل الأطباء الشرعيين في الجيش الأحمر خلصت، بعد أسبوع من اكتشاف رفات هتلر المتفحمة في حدائق المستشارية، إلى أنه تعرض للتسمم، واستنتجت أن الوفاة كانت نتيجة التسمم بمركبات السيانيد"، كما جاء في تقريرها.. كما أن عشيقته ماتت بنفس الطريقة.

كانت النتيجة استسلام ألمانيا غير المشروط في 8أيار 1945، وانتهاء الحرب في أوروبا.

يذكر أنَّ الزحف نحو برلين لم يكن فقط تتويجًا عسكريًا، بل لحظة سياسية فاصلة، كرّست الاتحاد السوفييتي كقوة عظمى، وحددت ملامح النظام الدولي في مرحلة ما بعد الحرب.

**كيف تقبل المجتمع السوفييتي كلفة الحرب على مستوى الخسائر البشرية والاقتصادية؟**

لم تقتصر الخسائر البشرية غير القابلة للتعويض في الاتحاد السوفييتي خلال الحرب ليست على الجنود القتلى في المعركة أو الذين توفوا جراء الإصابات في المستشفيات، أو المفقودين أو الجنود الذين لم يعودوا من الأسر، بل تشمل أيضًا المدنيين الذين توفوا بسبب المجاعة والأمراض، والذين قتلوا في الغارات الجوية والقصف المدفعي، والذين فقدوا حياتهم أثناء العمليات العقابية التي قام بها المحتلون، وكل المقاومين الذين تم إعدامهم، أولئك الذين تعرضوا للتعذيب في المعسكرات، بالإضافة إلى أولئك الذين تم ترحيلهم إلى ألمانيا ولم يعودوا منها. وتشير إحصاءات الوفيات في معسكرات الاعتقال النازية إلى الكثير، ففي حين أنه من بين 235 ألف أسير حرب بريطاني وأمريكي هناك، توفي 8300 شخص، أي بنسبة 3.5%، فإن من بين 5700 ألف أسير حرب سوفييتي، معظمهم من الروس، توفوا بسبب المجاعة والأمراض أو تم إعدامهم، بلغ عددهم حوالي 3300 ألف شخص، أي بنسبة 57%.

**ابرز التحولات الاجتماعية ما بعد الحرب**

تظهر تجربة الحرب أن سياسة "الاسترضاء" تجاه المعتدي (سياسة ميونيخ)، والصفقات غير المبدئية والبروتوكولات السرية، وعدم فهم الفرق بين الديمقراطية والفاشية، لا تؤدي إلى شيء جيد.

فقط بعد أن غزا المعتدي تقريبًا معظم أوروبا الغربية، بدأت بريطانيا والولايات المتحدة في البحث عن علاقات حقيقية مع الاتحاد السوفيتي، وهو ما أدى إلى تشكيل التحالف المناهض لهتلر بعد 22 حزيران 1941. في سنوات ما قبل الحرب، لم يكن القادة الغربيون يفارقهم الأمل الوهمي في الوصول إلى تسوية مع ألمانيا، بينما كان توجههم "مبنيًا على حسابات واقعية... لتوجيه العدوان الفاشي ضد الاتحاد السوفيتي".

كانت سياسة الحكومة السوفيتية تهدف بشكل أساسي إلى ضمان أمن الاتحاد السوفييتي ومنع الحرب. كان القيادة الحكومية والقيادة الحزبية تعتقد أن البيئة الرأسمالية المعادية للاشتراكية ستقوم حتمًا باتخاذ إجراءات عسكرية ضد الاتحاد السوفيتي. وفي منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين، أصبح من الواضح أن أكثر الأطراف احتمالًا لتكون خصومًا في الحرب هي ألمانيا وإيطاليا واليابان. في الوقت نفسه، كانت القيادة السوفيتية تعتبر أنَّه من الضروري تعزيز الوضع الدولي للبلاد من خلال توسيع العلاقات مع الدول الرأسمالية غير العدوانية، وإنشاء نظام جماعي لردع العدوان بناءً على اتفاقيات مع هذه الدول.

بهذا فإنَّ أحد الأحداث الرئيسية التي أدت في النهاية إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية كان اتفاق ميونيخ عام 1938.

في الفترة بين 29 و30 أيلول 1938، اجتمع قادة ألمانيا (أدولف هتلر)، إيطاليا (بنيتو موسوليني)، بريطانيا (نيفيل تشامبرلين)، وفرنسا (إدوار دالاديه) في ميونيخ، حيث فرضوا على حكومة تشيكوسلوفاكيا تسليم حوالي 1/5 من أراضيها (منطقة السوديت) إلى ألمانيا في غضون عشرة أيام. كانت هذه المنطقة مأهولة بما يسمى "الألمان السوديت"، مما أدى إلى خسارة تشيكوسلوفاكيا لربع سكانها، ونحو نصف صناعتها الثقيلة، وأهم الحصون العسكرية على الحدود مع ألمانيا. كانت الحدود الجديدة لألمانيا تمتد تقريبًا إلى ضواحي براغ. لم تؤخذ معارضة الحكومة التشيكوسلوفاكية لهذا الإملاء في الاعتبار.

كان هذا الحدث رمزيًا بسبب الضغوط المشتركة من الأنظمة الدكتاتورية العدوانية في ألمانيا وإيطاليا والديمقراطيات الغربية (حيث وافقت الولايات المتحدة على اتفاق ميونيخ). في المقابل، وقَّعت ألمانيا على تصريحات مع بريطانيا (في 30 أيلول) وفرنسا (في 6 كانون الأول)، التي كانت في الواقع بمثابة معاهدات عدم اعتداء. في 16 تشرين الثاني، اعترفت بريطانيا بالاحتلال الإيطالي لإثيوبيا.

تم التحضير لاتفاق ميونيخ لفترة طويلة، وقد دمر بين عشية وضحاها الهيكل الذي تم بناءه بصعوبة لنظام الأمن الجماعي في أوروبا، الذي كان يتضمن المعاهدات السوفيتية-الفرنسية، والسوفيتية-التشيكوسلوفاكية للتعاون المتبادل. كانت هنغاريا وبولندا من المشاركين في اتفاق ميونيخ وتقسيم تشيكوسلوفاكيا. احتلت بولندا منطقة تيسن، بينما احتلت هنغاريا منطقة كاربات الأوكرانية. أمَّا في موسكو، فقد تم التوصل إلى استنتاج واضح وصحيح إلى حد كبير: إنَّ اتفاق ميونيخ يشكل تهديدًا عسكريًا مباشرًا للاتحاد السوفيتي.

تبددت أوهام الاستراتيجيين البريطانيين والفرنسيين بسرعة. في كانون الأول 1938، تم التوصل إلى اتفاق مبدئي لعقد تحالف عسكري بين ألمانيا وإيطاليا واليابان. في 15 آذار1939، عبرت القوات الألمانية حدود منطقة السوديت، ودخلت إلى العاصمة التشيكوسلوفاكية براغ. في 31 آذار، أعلنت بريطانيا وفرنسا عن تقديم ضمانات خاصة لبولندا. وفي 11 نيسان، استخدم هتلر رفض بولندا للامتثال لمطالب ألمانيا ودعمها العلني من قبل بريطانيا وفرنسا لإقرار خطة "وايس" (الحرب ضد بولندا) وتحديد موعد بدء الاستعدادات لها في 1 أيلول 1939.

بدأ العد التنازلي لبدء الحرب. ومع ذلك، كانت هناك بعض الآمال بأنه إذا تعاون الاتحاد السوفيتي مع بريطانيا وفرنسا، فإن ألمانيا ستخشى الحرب على جبهتين، وسيعود هتلر إلى نتائج الحرب العالمية الأولى ولن يجرؤ على بدء الأعمال القتالية. من مارس إلى أغسطس 1939، كانت هناك مناورة بين القوى المعادية المحتملة والحقيقية، تهدف إلى البحث عن حلفاء وتفريق الأعداء. بالنسبة للقيادة السوفيتية، كانت هناك بديل: التوصل إلى اتفاق مع لندن وباريس أو مع برلين. كانت الهدف واضحًا: تجنب دخول الاتحاد السوفيتي في الحرب وخلق ظروف خارجية أفضل للدفاع عن البلاد. من جانبها، كانت كل من القوى العظمى تسعى لجذب الاتحاد السوفيتي إلى صفها كحليف.

كان لمحادثات الوفود العسكرية من الاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا، التي جرت في موسكو من 12 إلى 22 أب 1939، أهمية كبيرة في الوضع القائم. لكن المفاوضات وصلت إلى طريق مسدود بسبب رفض بولندا السماح للجيش السوفيتي بالمرور عبر أراضيها في حال تعرضها للعدوان الألماني. وكان رئيس الوفد العسكري الفرنسي، الجنرال ج. دومينك، قد أرسل من موسكو إلى باريس في 20 أب قائلاً: "إن فشل المفاوضات أمر لا مفر منه إذا لم تغير بولندا موقفها". في ظل الخطر العسكري ورفض الديمقراطيات الغربية التوصل إلى اتفاقات فعالة، قرر الاتحاد السوفيتي تغيير أولوياته بشكل حاد والرد على عرض ألمانيا لتوقيع معاهدة ثنائية.

في ليلة 23-24 أب، تم توقيع معاهدة عدم اعتداء بين الاتحاد السوفيتي وألمانيا في الكرملين لمدة 10 سنوات. هذا القرار السياسي من الحكومة السوفيتية ضمن لفترة من الزمن سلامة البلاد من الحرب مع ألمانيا وحلفائها الفعليين والمحتملين. كانت ألمانيا تتجنب تهديد الحرب على جبهتين في حال هجومها على بولندا، وكانت تأمل في حياد بريطانيا وفرنسا، لكن في النهاية أخفقت في حساباتها.

وكان البروتوكول السري للمعاهدة يتضمن تقسيم "مناطق النفوذ" بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي، ويشكل جزءًا مهمًا من الوثيقة الموقعة. شملت "مناطق النفوذ" للاتحاد السوفيتي فنلندا، إستونيا، لاتفيا، الجزء الشرقي من بولندا (بيلاروسيا الغربية وأوكرانيا الغربية)، بيسارابيا، ما كان يحد من تقدم الجيوش الألمانية نحو حدود الاتحاد السوفيتي في حال اندلاع حرب في أوروبا. كانت هذه الدول أو الأراضي التي تم انتزاعها من روسيا بعد الحرب العالمية الأولى بقرارات تم اتخاذها في فرساي أو من خلال عمليات ضم مباشرة.

لا يزال المؤرخون يناقشون النتائج العسكرية والسياسية والأخلاقية لتقسيم مناطق النفوذ بين الاتحاد السوفيتي وألمانيا في عام 1939 في أوروبا الشرقية. من الواضح أن هذه الاتفاقات تمت وراء ظهر الدول الأخرى وتناقضت مع السياسة السوفيتية السابقة التي كانت تهدف إلى إنشاء نظام جماعي للأمن. لكن لا يمكن تجاهل أن الاتحاد السوفيتي كان يعمل في ظل تصاعد الطموحات العدوانية للقيادة النازية، وغياب التفاهم مع بريطانيا وفرنسا، بالإضافة إلى تهديد حدود الاتحاد السوفيتي الشرقية من قبل اليابان العسكرية. علاوة على ذلك، كانت الاستخبارات السوفيتية قد أبلغت موسكو بأن ألمانيا كانت تهيئ الأرضية لدخول قواتها المسلحة إلى منطقة البلطيق، وهو ما كان يشكل تهديدًا مباشرًا للينينغراد والمناطق المركزية في الاتحاد السوفيتي.

بالإضافة إلى ذلك، فإن موسكو كانت على دراية بعدم استعدادها لخوض حرب كبرى، وبالتالي فإن المعاهدة مع ألمانيا كانت بمثابة صفقة مفروضة وضرورية في ضوء فشل المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي. وبعبارة أخرى، فإن المعاهدة بين الاتحاد السوفيتي وألمانيا في 23 أب 1939 جعلت من المستحيل إنشاء تحالف مضاد لهتلر يشمل الاتحاد السوفييتي قبل بداية الحرب العالمية. لكن معاهدة ريبنتروب-مولوتوف كانت صفقة اضطرارية للاتحاد السوفيتي، غير قابلة للتجنب في ضوء فشل المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي.

إنَّ الدروس الرئيسية من هذه الوثيقة هي: أولاً، لا يمكن ضمان الأمن الوطني على حساب دول أخرى، ويجب دائمًا التأكيد على العلاقة بين السياسة والأخلاق. ثانيًا، لا يمكن السماح بفشل المفاوضات التي تهدف إلى إنشاء تحالف ضد العدوان. إن خروج أحد أعضاء التحالف أو تفككه فعليًا يعني إعطاء الضوء الأخضر للحرب.

في تلك الفترة، كان من الممكن أن تساعد الولايات المتحدة في تشكيل تحالف ضد المعتدين، لكن السياسة الخارجية الأمريكية كانت تتبع موقفًا انتظاريا. طالما لم تتأثر مصالحها مباشرة، لم ترغب الولايات المتحدة في الانخراط في الصراع. في واشنطن، لم يكن هناك موقف موحد حيال المفاوضات بين الاتحاد السوفيتي من جهة، وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى، وكانت هناك في بعض الأوساط المؤثرة آراء تفيد بأن هذه المفاوضات لن تكون ذات فائدة». كما أن التأثير الكبير للتفاعل السلبي من الجمهور على موجة القمع السياسي في الاتحاد السوفيتي في عامي 1937-1938 كان له تأثير واضح على الموقف الأمريكي.

بالنسبة لـ "المحترفين" في وزارة الخارجية الأمريكية، لم يكن توقيع الاتفاق السوفيتي-الألماني بشأن عدم الاعتداء في 23 أب 1939 مفاجئًا. في أعينهم، كان ذلك مجرد تأكيد على صحة توقعاتهم السابقة بشأن الطابع «التوسعي» للسياسة الخارجية السوفيتية. من الجدير بالذكر أن هذه التوقعات لم تكن مبنية على تحليل معمق لجهود موسكو في منتصف الثلاثينيات للمشاركة في بناء نظام جماعي للأمن في أوروبا.

في الديمقراطيات الغربية، بما في ذلك الولايات المتحدة، كان الرأي السائد حتى الهجوم الألماني على الاتحاد السوفيتي هو أن الاتحاد السوفيتي لن يكون حليفًا فعالًا في مواجهة هتلر بسبب ضعفه العسكري. وكان هذا إلى حد كبير السبب في أن التحالف مع الاتحاد السوفيتي، الذي كان من الممكن أن يمنع الحرب العالمية الثانية، لم يصبح واقعًا. كانت التقييمات السائدة تشير إلى أن الجيش الأحمر قادر فقط على المقاومة القصيرة الأمد، وكان من الشائع اعتبار الاتحاد السوفيتي «عملاقًا على أرجل طينية». انتشرت تعليقات سلبية مثل تلك التي أدلى بها وزير الخارجية اللاتفي في. مونترس، الذي قال إن «روسيا السوفيتية من عام 1921 إلى عام 1923 كانت تبدو خطرًا لا مفر منه، وكان الجميع يعتقدون أن جيشها سيجتاح أوروبا بأسرها بفكرة الثورة العالمية. ولكن بعد ذلك، شعرت روسيا بالتعب ولم تعد تشكل التهديد الذي كانت عليه سابقًا… الاتحاد السوفيتي غير قادر ليس فقط على شن حرب هجومية، بل من غير المحتمل أن يتمكن من الدفاع عن أراضيه بشكل موثوق". ولعل نفس النظرة تسود اليوم، وهي بلا شك نظرة قاتلة، وليست خاطئة فقط.

تُظهر هذه التقييمات ليس فقط نقص المعلومات اللازمة لدى القادة السياسيين الغربيين، بل أيضًا الاتجاه العام لرؤية الاتحاد السوفيتي كشر لا يمكن التوفيق معه. كان هذا الاتجاه مستندًا إلى التناقضات الأيديولوجية والسياسية. ولم تأخذ هذه الأحكام بشأن عدم كفاءة الجيش الأحمر في الحسبان التطور الصناعي المتسارع الذي شهدته الاتحاد السوفيتي في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي. وكل ذلك كان له تكلفة باهظة على الديمقراطيات الغربية، مما ساهم في هزيمة التحالف الأنغلو-فرنسي في عام 1940. وكان هذا العامل الأخير قد مهد الطريق لهتلر للبدء في التحضير المباشر للحرب ضد الاتحاد السوفيتي.

 النقطة الثانية، تتعلق بالعالم العربي، فإلى أي مدى كان لخسارة النازية تأثيره على العالم العربي؟

إنَّ خسارة النازية في الحرب العالمية الثانية كان لها تأثيرات كبيرة على العالم العربي، وإن كانت هذه التأثيرات متعددة الأبعاد ومعقدة. يمكن تلخيص تأثيرات خسارة النازية على العالم العربي في النقاط التالية:

**نهاية الاستعمار الأوروبي**

بعد هزيمة النازية، بدأ العالم العربي يشهد تحولات كبيرة في العلاقات الدولية، حيث بدأت القوى الاستعمارية الأوروبية (بريطانيا وفرنسا) في فقدان قوتها ونفوذها. كان هذا جزءًا من التغييرات الجيوسياسية التي تلت الحرب العالمية الثانية، حيث أدت الهزيمة النازية إلى بداية مرحلة جديدة من التصورات الدولية، فظهرت حركات الاستقلال في معظم المستعمرات، بما في ذلك العالم العربي.

**التحولات السياسية والتعاون مع القوى الكبرى**

مع الانتهاء من الحرب، بدأت القوى الكبرى مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في تعزيز نفوذهم في المنطقة، وسعت كل من واشنطن وموسكو إلى جذب الدول العربية في سياق الحرب الباردة. على سبيل المثال، بدأت الولايات المتحدة في إقامة علاقات مع الدول العربية، خاصة في المجال الاقتصادي والعسكري، وهو ما أثر بشكل كبير على السياسة في الشرق الأوسط.

**صعود الصهيونية وتأسيس دولة إسرائيل**

بعد الهزيمة النازية، أدى الصراع الذي نشأ نتيجة للأيديولوجية النازية إلى إضعاف العديد من القوى الأوروبية في المنطقة. في سياق هذا الفراغ والنفوذ الغربي الجديد، تم تأسيس دولة إسرائيل في 1948، وهو الحدث الذي كان له تأثير كبير على العالم العربي، حيث أدى إلى صراع وجودي مع إسرائيل من جهة، وأدى إلى تعزيز الوحدة العربية ضد العدو المشترك. على هذتا ظهرت حركات مؤيدة لهتلر في العديد من الدول العربية وتحديدًا في فلسطين والعراق، تحت وهم مواجهة الأخير للصهيونية واليهودية، وكان هذا مجرد خطأ كبير في الحسابات، أدى إلى مشاركة كتائب عربية في القتال إلى جانب هتلر الذي زعم أنه يريد افناء اليهود، رغم أن الأخير مارس دورًا ملتبسًا بهذا الشأن قبل بداية حربه الطموحة.

**إعادة تشكيل الهوية السياسية والفكرية**

الهزيمة النازية خلقت أرضًا خصبة لتطوير الفكر الوطني والقومي في العديد من الدول العربية. إذ سعى العديد من المفكرين والسياسيين في العالم العربي إلى تعزيز الهوية القومية العربية، متأثرين من شعارات الاستقلال ومناهضة الاستعمار التي انتشرت بعد هزيمة الفاشية.

بالمجمل، يمكن القول إن خسارة النازية كانت نقطة تحول كبيرة على مستوى العالم العربي، حيث خلقت بيئة سياسية جديدة عززت حركات التحرر الوطني وأدت إلى تحولات في العلاقات الدولية في الشرق الأوسط.